من آيات الله

فى النوم

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

فمن علامات قدرته سبحانه وتعالى نومكم بالليل واستقراركم فيه، فقد ألبس الإنسان لباسَ النوم، ليجد فيه الجسم سكنه وراحته مما يعالج فى يقظته من أعمال، وما يحمل من أعباء. فكان النوم واليقظة خِلْقَةً يدوران فى فلك الإنسان. وبهذا التوارد للإنسان على موارد النوم واليقظة يعرف الإنسان نعمة الله عليه، وإحسانه إليه. ويجد للنوم طعمه الهنى فى كيانه. كما يجد لليقظة مساغها العذب فى كل جارحة من جوارحه وفى قوله تعالى: ﴿**ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله**﴾ دلائل وآيات ففى تقديم النوم على اليقظة التى يدل عليها قوله تعالى: ﴿**وابتغاؤكم من فضله**﴾ فى هذا إلفات إلى نعمة النوم التى قل أن يلتفت إليها كثير من الناس. إذ كان فى النوم عزل للإنسان عن الحياة، وقطع للصلة بينه وبين ذاته، حتى لكأنه قد فقد وجوده.

ومن هنا كانت نظرة كثير من الناس إلى النوم على أنه عارض دخيل على الإنسان أشبه بالآفات التى تعرض للجسد. وهذا فهم خاطئ لهذه النعمة العظيمة التى تضفيها يد الرحمة الإلهية على الإنسان.

وندع النظر إلى النوم كظاهرة جسدية، وإلى وظيفته العضويه، فى كيان الجسد الإنسانى، وننظر إلى ما يقع للإنسان فى رحلة النوم، وما يصادفه على طريقه من رؤى وأحلام، حيث تنطلق قوى الإنسان الخفية، وتسبح فى عوالمها، وتحقق قليلاً أو كثيراً من مطالبها التى أمسكتها عنها يقظة الجسد، وقيدتها دونها جوارحه.

ففى رحلة النوم، وفيما بين اليقظة والنوم يسبح الإنسان بعقله وروحه، فيما وراء هذا العالم المادى، حيث لا قيود ولا سدود، وحيث يحقق الإنسان فى هذا العالم ما عجز عن تحقيقه فى عالمه المادى، فيجد فى هذا ما يجد الجوعان بعد الشبع، والظمآن بعد الرى، فكم من محروم طعم فى نومه من كل طيب تشتهيه نفسه وتقصر عنه يده، وكم من مظلوم اكتوى بنار الظلم من يد ظالمه، وجد فى رؤى نومه ما يبشره، وكم من محب باعد الزمن بينه وبين حبيبه، وانقطع بينهما حبل اللقاء بغربة نائية فى عالم الأحياء أو عالم الموتى، وإذا هما فى الكرى على لقاء.

وكم من عالم وقف به علمه أمام معضلة لم يجد لها حلاً، حتى دب اليأس فى صدره ، وغربت شمس الرجاء من أفقه، وإذا هواتف الرؤى تناديه، وتبوح له فى نومه، بما ضنت عليه فى يقظته .. وكم .. وكم .. وكم .. ولذلك نجد الرسول ﷺ يشير إلى الرؤى الصادقة والمبشرات على أنها جزء من النبوة. ففى صحيح مسلم يذكر رسول الله ﷺ فى أكثر من حديث أن الرؤيا جزء من خمس وأربعين أو خمس وخمسين من النبوة.

إننا فى عالم النوم لنجنى من الثمرات العقلية والروحية والنفسية، ما لا نحصل عليه فى يقظتنا بمدركاتنا وحواسنا.. ذلك أن النوم إذا قطع صلتنا بعالم الحس وصلنا بعالم الروح، وكما تأخذ أجسادنا حظها من طعام وشراب من عالمها المادى، فإن أرواحنا ونفوسنا وعقولنا تتزود فى رحلة النوم من عالم الروح بكل ما تستطيع الوصول إليه منه.

فالنوم ليس إلا حبساً للجسد، وإطلاقاً للروح. وهو بهذا إنما يعطى الجانب الروحى من الإنسان حظه من الإنطلاق من كثافة المادة وضغوطها وظلامها. وماذا يبقى للإنسان أو من الإنسان إذا انطفأ هذا المصباح الإلهى المشتعل فى كيانه.. إنه لا إنسان بغير روح، وأنه لا وجود لإنسانية فقدت روحها، وإن لم تفقد حياتها.

وإذا كان النوم نعمة جليلة فإن الله سبحانه وتعالى قد جعل الليل الذى هو الظرف الطبيعى للنوم نعمة جليلة أيضاً. قال تعالى فى سورة القصص: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ**﴾ [القصص: ٧١] فالليل ستار يغشى الكائنات الحية ومنها الإنسان فيسلمها ذلك إلى السكن ثم النوم. قال ابن كثير: روى الطبرانى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «قل اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون وأنت حى قيوم. يا حى يا قيوم أنم عينى، وأهدئ ليلى» فقلتها فذهب عنى.

إن لليل سلطاناً قاهراً كسلطان النهار على الأحياء، هذا للنوم وذاك لليقظة. وكم ناجى العباد ربهم بالليل، وقطعوا أناءه حمداً وتسبيحاً، وركوعاً وسجوداً.

إن الليل وإن لم يستول على الإنسان سلطان النوم فيه، فإن فى ظلامه فرصة تحجز الحواس عن الإنطلاق وتمسكها عن العمل، وعندئذ تصحو مشاعر الإنسان وتستيقظ روحه، ومن هنا يكون مهيئاً للاتصال بالعالم العلوى، والوقوف على موارية، والرى من مشاربه.

ولأن الليل هو الظرف الطبيعى للنوم، فقد أقسم الله سبحانه وتعالى به، وسمى سورة من القرآن الكريم به، تنويهاً بقدره، فقال تعالى فى سورة الليل: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ**﴾[**الليل**:١-٢]. **وقال تعالى فى سورة الشمس**: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**﴾ [الشمس: ١-٤].

وقال تعالى فى سورة الانشقاق: ﴿**وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ**﴾ وفى عطف النهار على الليل: ﴿**ومن آياته منامكم بالليل والنهار**﴾ تقرير لحقيقة واقعة، وهى أن الليل وإن كان هو الظرف الطبيعى للنوم، فإن ذلك لا يمنع أن يكون النهار ظرفاً للنوم أيضاً حيث ينام الناس بالليل، وينامون كذلك بالنهار، وإن كان النوم بالليل هو الأصل، والنوم بالنهار فرعاً، ولهذا قدم الليل على النهار فى هذا المقام.

ومن جهة أخرى نجد فى قوله تعالى: ﴿ **وابتغاؤكم من فضله** ﴾ وإن جاء مجاوراً للنهار فإنه معطوف على قوله تعالى: ﴿ **منامكم بالليل** ﴾ وهذا يعنى أن النهار وأن كان الظرف الطبيعى للسعى والعمل، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون الليل ظرفاً للسعى والعمل - كما هو واقع الحياة - فالناس يعملون بالنهار ويعملون بالليل، كما ينامون بالليل، وينامون بالنهار.

وفى قوله تعالى: ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ إشارة إلى أن فى فعل الله ذلك، لعبراً وأدلة، لمن يسمعون مواعظه فيتعظون بها، ويفهمون حججه عليهم.

وفى استدعاء السمع دون حواس الإنسان وملكاته الآخرى، إشارة إلى أن السمع الذى يحقق إدراكاً ويعطى فهماً ثم يعطى هذا الفهم وذلك الإدراك ثمرة، هو السمع الذى يُخلى له الإنسان حواسه كلها، ويعطيه وجوده كله، على ما يكون عليه الإنسان فى الليل، وقد اشتمل عليه، وأمسك كل حواسه، فلم يبق للإنسان إلا سمعه المرهف الموجه إلى العالم الخارجى، وما يجئ منه.

* * *